

الفِكْرُ الْإِلْحَادِيُّ وَكَيْفَيَّةُ مُواجهَتِهِ

بِقَلْمِ الشَّيْخِ أَحْمَدِ إِسْمَاعِيلِ الْفَشْنِيِّ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي أَوْدَعَ فِي الْكَوْنِ آيَاتٍ لِلْمُتَقَرِّبِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا وَنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي جَاءَ بِالثُّورِ الْمُبِينِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَاحِبِهِ وَمَنْ تَعَاهُمْ بِإِحْسَانٍ يَوْمَ الدِّينِ.

الفِكْرُ الْإِلْحَادِيُّ دَاءٌ يُهَدِّدُ الْيَقِينَ وَيُزْعِجُ الْفِطْرَةَ

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ،

لَيْسَ الْإِلْحَادُ فِكْرَةً حَدِيثَةً، بَلْ هُوَ دَاءٌ قَدِيمٌ يَتَجَدَّدُ بِتَغْيِيرِ الْأَزْمَانِ. إِنَّهُ فِكْرٌ يَضْرِبُ فِي الصَّمِيمِ يَقِينَ الْفِطْرَةِ بِوُجُودِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، وَيَعْمَلُ عَلَى نَزْعِ كُلِّ مَعْنَى سَامٍ لِلْوُجُودِ. لَقَدْ أَكَّدَ سَيِّدُنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْفِطْرَةَ الْأَصِيلَةَ فِي كُلِّ إِنْسَانٍ، فَقَالَ: "كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ". فَالْأَصْلُ فِي الإِنْسَانِ هُوَ التَّوْحِيدُ، وَالْإِلْحَادُ إِنَّمَا هُوَ اتْحِرَافٌ يَطْرَأُ عَلَى الْقُلُوبِ.

بِدِيمَيَّةِ الْفِطْرَةِ فِي قَوْلِ الْأَعْرَابِيِّ

وَلَيْسْتُ هَذِهِ الْفِطْرَةُ حِكْرًا عَلَى الْعُلَمَاءِ وَالْفَلَاسِفَةِ، بَلْ هِيَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي قُلُوبِ الْبَسَطَاءِ. يُحَكِّي أَنَّ أَعْرَابِيًّا سُئِلَ: "بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟" فَقَالَ قَوْلَتُهُ الشَّهِيرَةُ الَّتِي صَارَتْ مَثَلًا فِي قُوَّةِ الْحُجَّةِ الْفِطْرِيَّةِ: "الْبَعْرَةُ تَنْدُلُ عَلَى الْبَعِيرِ، وَالْأَثْرُ يَدْلُلُ عَلَى الْمَسِيرِ، فَسَمَاءُ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَأَرْضُ ذَاتُ فِجَاجٍ، وَبِحَارٌ ذَاثُ أَمْوَاجٍ، أَلَا يَدْلُلُ ذَلِكَ عَلَى الْلَّطِيفِ الْخَبِيرِ؟!". فَهَذَا هُوَ صَوْتُ الْفِطْرَةِ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى مُقَدَّمَاتٍ مُعَقَّدةٍ.

وَقَدْ أَوْضَحَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنَّ إِنْكَارَ الْخَالِقِ هُوَ خُرُوجٌ عَنْ نِظامِ الْعَقْلِ وَالْبَدَاهَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَمْ حَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ حَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ (الطور: 35-36).

إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تُلْحِصُ مَنْهَجَ الْمُوَاجِهَةِ: لَا بُدَّ لِلْوُجُودِ مِنْ مُوجِدٍ، وَلَا بُدَّ لِلْخَلْقِ مِنْ خَالِقٍ، فَلَا يُمْكِنُ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَخْلُقَ نَفْسَهُ، وَلَا أَنْ يَخْلُقَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ.

بَيَانُ الْحَقِّ بِبَدَاهَةِ الْعَقْلِ: دَرْسٌ مِنْ سَيِّدِنَا أَبِي حَنِيفَةَ

كَانَ سَلَفُنَا يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ بَرَاهِينَ الْحَقِّ كَامِنَةٌ فِي كُلِّ نَاظِرٍ، وَمِنْ أَعْظَمِ الْمَوَاقِفِ الَّتِي تَدْلُّ عَلَى عُمْقِ الْفِكْرِ وَقُوَّةِ الْحُجَّةِ: مُنَاظِرَةُ سَيِّدِنَا الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ التُّعْمَانِ رَحْمَةُ اللَّهِ مَعَ قَوْمٍ مِنَ الْمُلْحِدِينَ.

لَقَدْ تَعَمَّدَ سَيِّدِنَا الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ التَّالِخُرَ عنِ الْمَوْعِدِ الْمُحَدَّدِ، فَلَمَّا حَضَرَ سَأْلُوهُ عَنْ سَبَبِ تَأْخِيرِهِ، فَقَالَ: "كُنْتُ مُشْتَغِلًا بِأَمْرٍ عَجِيبٍ: إِنَّ سَفِينَةً مَسْحُونَةً بِأَنْواعِ الْبَضَائِعِ الْعَظِيمَةِ، جَاءَتْ فِي نَهْرٍ دِجلَّةَ، وَسَارَتْ بِنَفْسِهَا، لَا مَلَاحٌ يَسُوقُهَا، وَلَا رُبَّانٌ يُقُودُهَا، تَخْتَرِقُ الْأَمْوَاجَ وَتَسِيرُ مُسْتَوَيَّةً بِمُفَرَّدِهَا، حَتَّى رَسَتْ عَلَى الشَّاطِئِ ثُمَّ فَرَغَتْ بِنَفْسِهَا، ثُمَّ عَادَتْ لِتَمْتَأَلَّ دُونَ صَانِعٍ أَوْ مُدَبِّرٍ!"

فَصَاحَ الْمُلْحِدُونَ مُتَعَجِّبِينَ: "هَذَا مُحَالٌ! كَيْفَ لِسَفِينَةٍ أَنْ تَسِيرَ وَتُرْسِيَ بِهَذِهِ الدِّقَّةِ دُونَ صَانِعٍ وَمُدَبِّرٍ؟ إِنَّ هَذَا لَا يَقْبِلُهُ عَقْلٌ!"

فَعِنْدَهَا أَجَابَهُمْ سَيِّدِنَا الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ: "وَيْحَكُمْ! إِذَا كَانَ مُجَرَّدُ سَفِينَةٍ صَغِيرَةٍ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَسِيرَ بِدُونِ مُسَيِّرٍ، فَكَيْفَ بِهَذَا الْعَالَمِ كُلِّهِ، بِسَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ، وَشَمْسِهِ وَقَمَرِهِ، هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَقُومَ بِدُونِ خَالِقٍ وَحَافِظٍ وَمُدَبِّرٍ لَهُ؟!"

فَكَانَتْ حُجَّتُهُ هِيَ بَدَاهَةُ الْعَقْلِ وَشَهَادَةُ الْكَوْنِ، فَسَكَّوْتُوا وَأَفْرُوا.

دَلَائِلُ الْكَوْنِ وَآيَاتُ الْحَقِّ

لَقْد مَلَّ اللَّهُ الْكَوْنَ بِآيَاتٍ تُؤَكِّدُ وُجُودَهُ وَوَحْدَانِيَّتَهُ، فَالنَّطْرُ الْمُتَجَرِّدُ فِي الطَّبِيعَةِ هُوَ أَكْبَرُ
رَدَّ عَلَى الْإِلْحَادِ. يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولَئِكَ الْأَبْلَابِ﴾ (آل
عمران: 190).

وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ؟

إِنَّ أَقْرَبَ الْآيَاتِ إِلَيْنَا هِيَ أَنْفُسُنَا الَّتِي بَيْنَ جُنُوبِنَا. تَأْمَلْ -أَخِي الْكَرِيمُ- فِي هَذَا
الْجَسَدِ الْعَجِيبِ. الْقَلْبُ يَنْبِضُ مِائَةً أَلْفِ مَرَّةٍ فِي الْيَوْمِ دُونَ كَلَّ اُوْ مَلِّ، فَمَنْ أَوْدَعَ
فِيهِ هَذِهِ الْفُوْقَةَ؟ وَالْعَيْنُ تَرَى بِأَدْقِ التَّفَاصِيلِ وَأَجْمَلِ الْأَلْوَانِ، فَمَنْ صَمَّمَ هَذِهِ الْعَدَسَةَ
الرَّبَّانِيَّةَ؟ وَالدِّمَاغُ يَحْوِي مِنَ الْخَلَايا وَالْوَصَلَاتِ مَا يَقُوْقُعُ أَعْقَدَ الْحَوَاسِيبِ فِي الْعَالَمِ،
فَمَنْ نَظَّمَهُ وَدَبَّرَهُ؟ إِنَّهَا لَآيَاتٌ نَاطِقَةٌ بِعَظَمَةِ الْخَالِقِ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَقْرَى السَّمْعَ
وَهُوَ شَهِيدٌ.

وَفِي دَعْوَةٍ صَرِيقَةٍ لِلنَّفَرِ فِي أَصْغَرِ الْمَخْلُوقَاتِ، يَقُولُ جَلَّ فِي عُلَاهٌ:
﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ حُلِقتُ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ
كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الْغَاشِيَّة: 17-20).

فَكُلُّ نِظَامٍ دَقِيقٍ فِي هَذَا الْكَوْنِ، مِنْ دَوْرَانِ الْأَفْلَاكِ إِلَى ثُرُولِ الْقَطْرِ، إِنَّمَا هُوَ شَاهِدٌ
عَلَى قُدرَةِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ.

كَيْفِيَّةُ الْمُوَاجَهَةِ الْحَدِيثَةِ وَبَرَكَةُ الصَّلَاحِ

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكِرَامُ،

إِنَّ الْمُوَاجَهَةَ الْحَقِيقِيَّةَ لِلْأَلْحَادِ تَبْدِأُ مِنْ دَاخِلِ الْبُيُوتِ، بِتَرْسِيخِ الْيَقِينِ وَغَرْسِ الصَّالِحِ،
كَمَا وَرَدَ فِي قِصَّةِ سَيِّدِنَا مُوسَى وَالْخَضِيرِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِنْدَ بَنَاءِ الْجِدَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ
سُبْحَانَهُ:

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغَالَمِينَ يَتَيَّمِّينَ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا
صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشْدَدَهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كِنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَّبِّكَ﴾ (الْكَهْفُ:
82).

إِنَّ صَالِحَ الْأَبِ حَفِظَ كَنْزَ أَبْنَائِهِ فِي الْأَرْضِ. وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ مَعَ الْإِيمَانِ، فَصَالِحُنَا
وَاسْتِقَامَتْنَا هُمَا كَنْزُ الْيَقِينِ الَّذِي نُورِثُهُ لِأَبْنَائِنَا.

وَمِنْ أَعْظَمِ الْمُوَاجَهَاتِ:

* قُوَّةُ الْيَقِينِ وَالْعِلْمُ: إِنَّ مَنْ تَعْلَمَ وَتَعَمَّقَ فِي عِلْمِ الْعِقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ، صَارَ كَالدِّرْعِ
فِي وَجْهِ الشُّبُهَاتِ. وَلَنَتَكَرَّرْ قِصَّةُ ذَاكَ الرَّجُلِ الَّذِي جَاءَ إِلَى سَيِّدِنَا الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ
يَسْأَلُهُ: "كَيْفَ يَعْذِبُ اللَّهُ إِبْلِيسَ بِالنَّارِ وَقَدْ خُلِقَ مِنْهَا؟" فَأَخَذَ سَيِّدُنَا الشَّافِعِيُّ بِلِبْنَةِ مِنْ
طِينٍ وَضَرَبَ بِهَا الرَّجُلَ، فَتَوَجَّعَ الرَّجُلُ، فَقَالَ لَهُ سَيِّدُنَا الشَّافِعِيُّ: "إِنَّ الطِّينَ خَلَقْتَ
مِنْهُ وَقَدْ أَوْجَعَكَ، فَلَا تَتَعَجَّبْ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى تَعْذِيبِ مَخْلُوقٍ بِمَا خَلَقَ مِنْهُ".

* الْقُدُودُ الْحَسَنَةُ وَالْأَمَانَةُ: لَيْسَ الصَّالِحُ مُجَرَّدَ عِبَادَةٍ شَخْصِيَّةٍ، بَلْ هُوَ سَبَبُ الْبَرَكَةِ
فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ. فَالْأَبُ الصَّالِحُ هُوَ أَوَّلُ مَعْلَمٍ فِي حَيَاةِ أَبْنَائِهِ، وَأَفْعَالُهُ هِيَ التِّي
يَتَعَلَّمُونَ مِنْهَا حُبُّ اللَّهِ.

فَإِنَّ اللَّهَ الَّذِي حَفِظَ كَنْزَ الْيَتَيْمَيْنِ بِسَبَبِ صَالِحٍ أَبِيهِمَا، سَيَحْفَظُ لَنَا أَبْنَائَنَا وَأَحْقَادَنَا إِنْ
غَرَسْنَا فِي قُلُوبِهِمُ الْيَقِينَ، وَاجْتَهَدْنَا فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ.
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.